الفصل الخامس
النحو الكلي بين البنية التصورية والبنية العصبية

ظهر مصطلح النحو الكلي علي يد العالم الأمريكي نعوم تشومسكي، ليشير إلي أن اللغة التي يولد بها الإنسان تحوي قواعد نحوية تشمل القواعد الموجودة لدى كل لغات البشر، وهو مجرد تصور وافتراض منه. لهذا يمكن أن ندخل حديثه ضمن الأشياء المتصورة أي في البنية التصورية، لهذا وضعناه ضمن الباب الخاص بالبنية التصورية التي تشير إلي الأشياء التي نتصور حدوثها في المخ. ولكن مع تطور العلوم العصبية بدأنا نتناول قضية النحو الكلي بشكل أعمق من ذي قبل، ونضع تصور تشومسكي علي المحك بدراسته من خلال البنيتين (التصورية والعصبية) لنصل إلي نتائج جديدة. فنحاول دراسة القضية من هذين الجانبين في إطار حديثنا عن قضايا لغوية عدة؛ ارتبطت بينهم جميعا من خلال عدة محاور هي:

- المحور الأول: الأصل الوراثي والنحو الكلي.
- المحور الثاني: بعض العلوم الرافضة للنحو الكلي.
- المحور الثالث: آراء علماء اللغة والأعصاب حول النحو الكلي.

المحور الأول: الأصل الوراثي والنحو الكلي

هل قصة النحو الكلي تبدأ قبل ميلاد الطفل؛ فيأتي الدنيا حاملا معه نحوا شاملا موجودا في كل اللغات؟ هذا السؤال يدفعنا إلي سؤال آخر؛ إذا صح هذا الفرض فكيف انتقل هذا النحو الشامل إلي الطفل؟ هل في جيناته الوراثية التي ورثها وانتقلت إليه من أجداده؟ إذن ما الجينات الوراثية التي حملت إليه النحو الكلي؟ ولنبدأ من عقل الطفل.

١ – ماذا في عقل الطفل من اللغة قبل اكتسابها؟

هل الطفل يولد ومخه صفحة بيضاء من أي معلومة لغوية أو غير لغوية؟ بل إن جاكندوف يطرح سؤالا آخر أعمق مما سبق، فيقول "إذن السؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي النذائر التي يجب أن تكون موجودة في عقول الأطفال حتى يتسنى للنظام اللغوي أن يتطور في وجود المدخلات اللغوية في المحيط الذي يعيش فيه الأطفال"[١]

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٥

ما المكونات الفطرية التي يجب توافرها في بنية عقل الطفل عندما يولد التي ستمكنه مستقبلا من اكتساب لغة بيئته؟ ثم يعيد طرح السؤال نفسه بصورة أخرى. "بمعنى آخر، ما هي جوانب تعلم اللغة التي تقتضي أن يكون للطفل خصوصية معرفية للغة موجودة مسبقا في عقله"[1]

ما مظاهر امتلاك الطفل جوانب بيولوجية؛ ستمكنه من تعلم اللغة من بيئته كخصائص وراثية موجودة في مخه سلفا قبل أن يولد، سيجعل له خصوصية معرفية للغة؟ أو ما إمكانيات تعلم اللغة الموجودة سلفا في عقل الطفل قبل أن يولد والتي ستجعله يكتسب لغة مجتمعه إلي أن ينمو ويكبر؛ فتصبح له لغته الخاصة؟

هذا القول اعتراف منه بشيئين:

- أن اللغة مكتسبة تُكْتسب بالتعلم من المجتمع.
- أن القدرة على التعلم قدرة فطرية لدى كل البشر قبل معرفتهم باللغة؛ ثم تأتي اللغة ضمن ما يكتسبه الطفل من مهارة تدخل مخه؛ لقد اكتسب اللغة بالتعلم

يجيب جاكندوف على سؤاله ليدخلنا إلي حوار مع تشومسكي حول النحو الكلي. لهذا يعيد صياغة سؤاله قائلا "إن المصطلح الشامل والجامع المعروف لهذه النذائر الخاصة باللغة هي **القيود المفروضة** علي تشكيل اللغات الطبيعية أو القواعد النحوية الشاملة العالمية ... لذلك يمكن التعبير عن السؤال بهذه الطريقة: إلي أي مدى تعتبر القواعد النحوية الشاملة العالمية غنية؟"[2]

إلي أي مدى تصبح اللغات وقواعدها النحوية شاملة عالمية، فتصبح غنية بعدد من قواعد النحو الكلية الشاملة في كل اللغات. ثم يبدأ في الإجابة علي ذلك باستصحاب رأي تشومسكي كمقدمة افتراضية للنحو الكلي؛ باحثا عن الأصل الجيني الوراثي الذي ينقل إلينا القدرة علي تعلم اللغة، وليست اللغة نفسها. فاللغة مكتسبة كمهارة يكتسبها الطفل بالتعلم، أما التعلم فهو شيء فطري فينا يمكِّنَنَا من عملية اكتساب المهارة اللغوية، كما حدث مع أول عملية تعلم لغوية للإنسان الأول؛ عندما تعلم أبوه آدم أسماء الأشياء من المعلم الأعظم الله سبحانه وتعالى، فتعلم مهارة الترميز الصوتي منه.

---

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٥

(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات:١٢٦

لماذا تعلم آدم الأسماء عندما علمه الله سبحانه وتعالى إياها؟

الإجابة: لأن آدم لديه ملكة تعلم فطرية أو قدرة علي التعلم موجودة في جيناته قبل أن يولد، يتعلم ويكتسب أي مهارة. فكانت اللغة من أهم مهاراته المكتسبة.

٢- هل تنتقل اللغة بالوراثة ؟

يقول جاكندوف "بما أن النحو الشامل الجامع هو بحكم التعريف غير مكتسب، فإنه يجب أن ينتقل إلي الطفل وراثيا. فالمادة الوراثية، لا يمكن أن تُبَرْمِجَ أو تُشَفِّرَ القدرات المعرفية السلوكية مباشرة،[١] بل هي تستطيع فقط توجيه (مكون) البروتين. لذلك فإن الطريق من الجينات إلي قواعد النحو الشاملة هو بالضرورة غير مباشرة: توجِّه الجينات تطوير هياكل الدماغ التي هي على وجه الخصوص قابلة لأن تنتظم بطرق معينة استجابة للمدخلات اللغوية. هذه الهياكل الدماغية تُدّعم قواعد النحو الشامل وظيفيا؛ وإن تنظيمها الذاتي استجابة لنتائج المدخلات اللغوية في الدماغ تُدعم وظيفيا القواعد النحوية للغة" [٢].

يقول جاكندوف: إذا افترضنا جدلاـــ كما قال تشومسكي ـــ أن النحو الكلي وراثي؛ فلا بد أن ينتقل بالوراثة؛ وتصبح المادة الوراثية هي المسئولة عن نقله، ولكن المشكلة أن الجينات الوراثية لها وظيفة محددة، هي توجيه مكون (البروتين) الذي يحمل الصفات الوراثية وينقلها فقط، لذلك فالانتقال من الجينات الوراثية إلي قواعد النحو الكلي لا يتم بطريقة مباشرة، فكيف تتحول قواعد النحو الكلي إلي داخل الجينات لكي نتوارثها؟

الإجابة: تقوم الجينات من خلال ما هو مسجل على أشرطتها البروتينية من عناصر وراثية، وكذا بما لديها من قدرات وراثية خاصة بالجنس البشري؛ بتوجيه تطور هياكل الدماغ؛ أي تقوم بعملية تطور لما هو مسجل داخل أشرطتها الوراثية من هياكل أو برامج خاصة بالدماغ؛ وذلك نظرا لقابلية الدماغ بهياكلها لأن تنتظم بطرق معينة استجابة لتأثير المدخلات اللغوية. لماذا؟ لأنها خُلقت ولديها القدرة الكبيرة علي

---

(١) أي لا يمكن توجيه القدرات المعرفية السلوكية التي لدينا من خلال برمجتها أو تشفيرها مباشرة.

(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٦

التعلم؛ فهي تعدل وتغير وتوجه هياكلها؛ لتتلقى المهارة المعروضة عليها -كاللغة مثلا- في إطار عملية التعلم الفطرية الخاصة بها. هذه الهياكل الدماغية التي تتطور بالتعلم تدعم فكرة النحو الكلي من حيث الوظيفة، كيف؟ نظرا لأن هذه الهياكل الدماغية مسجل علي أشرطتها الوراثية القدرة التعليمية، فهي تعدل فيها استجابة للوظيفة الأصلية للغة وهي التواصل؛ فيصبح لهذه الهياكل وظيفة لغوية محددة، هي تحقيق التواصل من خلال تعديلها المستمر كبرامج أو هياكل دماغية، لينتج لنا في النهاية نحوا كليا مسجلا علي الأشرطة الوراثية؛ تنقلها الجينات جيلا بعد جيل، حيث تتشكل الهياكل الدماغية في صورتها المتطورة بالتعلم؛ بناء علي صور وأنماط ونماذج جديدة تمكنها من معالجة اللغة، لهذا فإن الهياكل الدماغية تدعم قواعد النحو الكلي وظيفيا، بأن تسجل بداخلها صورا متطورة للنحو الشامل بقواعده المختلفة التي تتشابه في معظم اللغات، مما يجعلنا نؤكد علي وجود قواعد نحو كلي لدى كل البشر؛ نظرا لوجود تلك القواعد النحوية المتشابهة في هياكل أدمغة البشر؛ هذا ما جعلنا نرجح فكرة وجود قواعد نحو كلي.

الرد علي ذلك:

لكن بإعادة النظر في القضية تبين أنها في حقيقتها عبارة عن خبرات لغوية متعلمة ومكتسبة، وهي متشابهة في قواعدها النحوية في أغلب اللغات إلي الحد الذي يجعلنا نقول بوجود نحو كلي شامل متشابه في أدمغة كل البشر مسجل في جيناتهم الوراثية، يقول جاكندوف "لذلك فإن الطريق من الجينات إلي قواعد النحو الشاملة هو بالضرورة غير مباشرة: توجِّه الجينات تطوير هياكل الدماغ التي هي على وجه الخصوص قابلة لأن تنتظم بطرق معينة استجابة للمدخلات اللغوية. هذه الهياكل الدماغية تُدعم قواعد النحو الشامل وظيفيا؛ وإن تنظيمها الذاتي استجابة لنتائج المدخلات اللغوية في الدماغ تُدعم وظيفيا القواعد النحوية للغة." [1]

إن تنظيم هياكل الدماغ الذاتي التلقائي يأتيها نتيجة قدرة الدماغ على التعلم؛ فهو ذاتي حيث تقوم الهياكل الدماغية بتنظيم نفسها فتتلقى المعلومات المتعلمة بصورة ذاتية تلقائية؛ وتلك هي الطبيعة الفطرية للخلايا العصبية المطاطية، وذلك بأن تتعلم إدخال

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٦

المدخلات اللغوية (أي المادة اللغوية التي ستتعلمها) مما يدعم قيمة وظيفة القواعد النحوية للغة، كمادة متعلمة ضمن المدخلات اللغوية، لها وظيفة في اللغة مسجلة في الهياكل الدماغية، نتيجة قدرتها علي التعلم والاكتساب لكل جديد.

الخلاصة:

إذا كان النحو الكلي فطريا (كما يرى تشومسكي)؛ لهذا يجب أن ينتقل إلي الطفل عن طريق الجينات الوراثية، لكن المادة الوراثية لا يمكنها أن تبرمج أو تشفر القدرات المعرفية السلوكية مباشرة، لأن هذه القدرات غير مسجلة في الجينات الوراثية، بل هي مكتسبة بالتعلم، وهي تستطيع توجيه (مكون) البروتين فقط الذي يحمل الخصائص الوراثية لهذا المخلوق دون سواه، وتقوم بعملية الانتخاب من جينات الأب والأم من بين صفاتهما الوراثية لتحديد صفات هذا المولود الجديد، هذه الجينات مسجل عليها كل الخصائص الوراثية لهذا المولود، لذا فالمكون البروتين هو الذي يوجه الخلية في نموها وتغيرها حسب ما عليها من صفات وراثية منتخبة من صفات الوالدين.

إذن فعمل الجينات الوراثية هو توجه هياكل الدماغ، أي البناء الداخلي للدماغ؛ إذ إنها بطبيعتها التكوينية قابلة لأن تنتظم بطريقة معينة كي تقبل المدخلات اللغوية وغير اللغوية؛ فتنتظم الدماغ بالتعلم في أشكال وهياكل تفرضها عليها طبيعة المادة المُتعلمة، لكنها في نهاية الأمر خاضعة للقدرة علي التعلم التي تفرض عليها تعلم كل ما تقابلها.

٣- الخصوصية الوراثية وأثرها علي تعلم اللغة واكتسابها:

يؤكد جاكندوف علي تأثير الوراثة علي عملية اكتساب اللغة، يقول: "إن القدرة علي تعلم اللغة يجب أن تكون موحدة ومتماثلة نسبيا من فرد لآخر ... فالاتساق والتماثل النسبي في اكتساب اللغة الأولى، ... يدل على خصوصية في الدماغ أساسها جيني."[(١)]

هذه الخصوصية التي في الدماغ أتت من عامل وراثي يقصد به خاصية التعلم، فاكتساب اللغة موجود نظرا لوجود خاصية التعلم، أي القدرة علي التعلم التي انتقلت

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٧

إلي الفرد بالوراثة الجينية، فهي التي مكنته من الاتساق والتماثل النسبي في اكتسابه للغة، وهو اتساق وتماثل بين كل أفراد البشر، مكنهم من بناء أنساق وهياكل لغوية في الدماغ.

"إن وجود خصوصية وراثية لاكتساب اللغة يتطلب وجود مصدر للجينات التي نحن بصددها"[1] أي أن وجود عناصر وراثية تتسبب في اكتساب اللغة، يجب تدعيمها بوجود مصدر للجينات الوراثية المتسببة في اكتساب اللغة. هذه الجينات تعمل وفق خاصية مدونة فيها هي **خاصية التعلم أو القدرة علي التعلم**. وهي المصدر الآتي من جيناتنا الذي يدفعنا للتعلم ومن ثم اكتساب اللغة بالتعلم. إن جاكندوف يتجه إلي علم الوراثة؛ ليأخذ منه دليلا علي وجود جين يتسبب في اكتساب اللغة؛ لكن الأمر أبسط من ذلك، حيث الأمر متعلق بقدرة ذاتية موجودة لدى المخلوق البشري هي القدرة علي التعلم هي التي سمحت له، ومكنته من التعلم وتطوير كل ما تعلمه من لغة وغيرها، وهذه تدخل ضمن القدرات المعرفية العامة لدى الإنسان، لا إلي النحو الكلي.

بناءً على ما سبق فإن نظرية النحو الكلي تعد قاصرة، بل ذات نظرة ضيقة، حيث تُقْصر مكتسبات العقل البشري وقدراته، وما يتعلمه على بعض القواعد النحوية التي سماها: النحو الكلي الشامل العالمي. إلا أن قدرات المخ البشري تفوق ذلك بكثير، فهى تُكْسب الفرد (بالقدرة على التعلم) آلاف المهارات والحرف والخبرات والعلوم واللغات، بل إننا في مجال تعلم اللغات نجد المخ قادرا على اكتساب عدد منها قد يصل إلى سبع لغات وأكثر تختلف في قواعدها النحوية، كيف له أن يجمع بينها مع اختلافها النحوي؟

المحور الثاني: بعض العلوم الرافضة للنحو الكلي

تناول كثير من علماء العلوم المعرفية؛ نظرية النحو الشامل بالنقض والرفض منهم:

١- رأي أطباء الأعصاب النفسيين التطوريين:

"فقد لاحظ هؤلاء العلماء أنه لم يتم العثور علي نسيج عصبي مميز لقدرة الإنسان اللغوية، وأشاروا إلي عدم مصداقية التطورية لقواعد النحو الشاملة المحددة والغنية

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٧

لتشومسكي، ينكرون ببساطة إمكانية أن يكون للغة عنصر فطري ذو أهمية. ولكن هؤلاء العلماء لا يقدمون أي تفسير للحقائق النحوية المفصلة والدقيقة للغاية والتي جهد علم اللغويات في الكشف عنها علي مدى العقود الماضية."[1]

حقا لا توجد خلية عصبية داخل النسيج العصبي للإنسان متخصصة في القدرة اللغوية للإنسان، ولا يوجد جين من بين جينات البشر يحمل خصائص لغوية وراثية تنتقل من الآباء إلي الأحفاد. لهذا فهم ينكرون نظرية النحو الشامل لأنها غير مسجلة ضمن الجينات الوراثية للبشر كجين مختص بالقدرة اللغوية عند الإنسان. لكنه يرجع إلي قدرة بشرية أخري، هي القدرة علي التعلم، فاكتساب اللغة لا يتم تحت مسمى خاص بها هو (اكتساب اللغة) ليصبح له جين وراثي خاص به يسمي جين اكتساب اللغة، ولكنه يدخل ضمن جين وراثي آخر هو جين التعلم، الذي يمكنه من اكتساب كل المهارات ومنها اللغة عن طريق التعلم، وما ذكره جاكندوف من وجود أدلة لدى أصحاب النحو الكلي تدعم صحة نظريتهم كوجود حقائق نحوية تشير إلي وجود قواعد نحوية شاملة متماثلة في كل اللغات يرجع إلي أسباب أخرى؛ هي توافق المنطق العقلي والحجاجي لدى كل البشر في البناء اللغوي عامة، بسبب أن هذه اللغات انبثقت من لغة واحدة ذات منطق عقلي واحد؛ وإن لم نملك الدليل القاطع عليه في وقتنا الحاضر.

ونضيف إلى ما سبق أنه على الرغم من وجود باحات في المخ مختصة باللغة ـــ بروكا وفرنيكا ـــ مهمتها معالجة اللغة إلا أن تلك الباحات لم تقدم دليلا على خروج نحو شامل / كلي منها، أو تكونه فيها، بل هى تعالج اللغة بشكل عام، وتظهر تلك المعالجة عندما تصاب هذه الباحات بعطب ما، مما يدل على عدم وجود مكان لإنتاج قواعد النحو في الدماغ ولا في الباحات، فالباحة منطقة معالجة اللغة وإنتاجها كبناء متكامل: نحويا صرفيا دلاليا ... يخضع هذا البناء لقواعد إنتاج لغوية تدخل ضمنها القواعد النحوية.

٢- رأي علماء النفس الاتصالي وصانعي أنماط الحواسيب:

قابل هؤلاء العلماء بين الدماغ والحاسوب، فهؤلاء العلماء "الذين أكدوا أنه يمكن فقط لآليات المعرفة الفطرية أن تكوّن أوزانا مشبكية عصبية محددة وراثيا - وهي علي

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٨

الأرجح غير ممكنة – ينكرون إذاً إمكانية أن يكون هناك شيء ما غنيٌ بقدر القدرة الفطرية للتعلم. ومع ذلك ... هم يقترحون نموذجا لوظائف الدماغ يتعارض مع الاندماجية الخالصة للغة، ومع القدرات المعرفية الأخرى، ويتجاهلون أيضا تقريبا كل الظواهر اللغوية التي يجب أن تفسرها نظرية ما للتعلم"[1].

أكد علماء النفس الاتصالي وكذا علماء صناعة الحاسوب علي أنه إذا وجدت آلية معرفية فطرية داخل مخ الإنسان؛ ستصنع أوزانا مشابكية عصبية كالمشابك العصبية الموجودة بين الخلايا العصبية، لكن هذا الأمر غير ممكن، والبديل هو وجود قدرة فطرية علي التعلم ضمن التكوين الفطري الطبيعي للخلايا العصبية التي أثبتت وجودها صفات الخلية العصبية وأنوعها (الخلية المطاطية) التي يولد الإنسان مزودا بها ـــ بصورة فطرية ـــ منذ أن علم الله الإنسان الترميز الصوتي فتعلم. ولا توجد وسيلة تجعل الإنسان يتواصل مع غيره تماثل أو تقارب الآلة الفطرية الوراثية التي ورثها عن أجدده، وهي قدرة التعلم؛ لتضع في المشابك العصبية التي بين الخلايا العصبية كل المكتسبات المحددة وراثيا؛ فقد جاءته قدرة التعلم عن طريق الوراثة فحُدِدَتْ وراثيا داخله، لتعمل وفق قوانين الوراثة.

لكن واقع الأمر غير ذلك؛ فإن الإنسان هو من يصنع مشابكه العصبية وينميها ليُحمِّل عليها مكتسباته اللغوية وغير اللغوية التى اكتسبها بالتعلم، فتصبح عملية التعلم وسيلته الوحيدة لتخزين مكتسباته التعليمية ضمن ما يخزنه في مشابكه العصبية، وتصبح المشابك العصبية التي يصنعها أفضل وسيلة لهذا العمل الذي يرجع إلي قدرة فطرية هي القدرة علي التعلم. وهي توجد لدى الإنسان منذ خلقه الله، وعلمه فتعلم لوجود هذه القدرة الفطرية في خلاياه. إنه يصنع مشابكه بالتعلم؛ فكلما زاد تعلمه زادت مشابكه.

أما اقتراحهم صنع نموذج لوظائف الدماغ؛ فهو محاولة منهم لتطبيق آلية صناعة الأنماط الحاسوبية علي النماذج الدماغية، وهذا الأمر يبين مدى ضيق أفقهم وقلة علمهم بكيفية عمل الدماغ الذي يختلف تماما عن عمل الحاسوب، فالأول يعمل

---

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٨

بطاقة بيولوجية كهربائية كيميائية. والثاني يعمل بطاقة كهربائية فقط، وأن النماذج الحاسوبية تعمل وفق برامج محددة وضعها فيها صانعوها مسبقا قبل أن تعمل، أم النماذج العصبية التي في الدماغ؛ فتعمل وفق برامج غير محددة ولا نعرف بدقة كل شيء عنها وعمّا يؤثر في عملها أو تعمل وفقه.

إننا نكتشف كل يوم شيئا جديدا يؤثر علي النماذج الدماغية، وأهمها الآن هي الاندماجية الخالصة للغة، حيث يحدث تعاون لعناصر كثيرة داخل الدماغ لصنع نموذج لفهم قضية ما، أو رسالة لغوية جاءت علي شكل معادلة رياضية.

إن الإمكانيات الخاصة بالنماذج الدماغية تختلف عن الحاسوب الذي تُسجل فيه برامجه علي ألوح (رامات)، فإذا حدث تلف في جزء من البرنامج؛ فإن البرنامج يسقط كليا ولا يعمل.

أمَّا الدماغ إذا أصيب جزء منها أو حدث مرض ما مثل عته الشيخوخة (الزهايمر)، فإن البرامج المسجلة في الدماغ لا تسقط كليا؛ بل تعمل بكفاءة أقل حسب نوع المرض أو الإصابة.

مثل ما يحدث للمريض بعته الشيخوخة؛ إذ نجده يذكر أشياء وينسى أخرى، وربما يتذكر أشياء قديمة جدا وينسى أشياء حديثة، لماذا؟ لأن المعلومات مسجلة عنده علي زوائد خلاياه العصبية الخاصة بها ومشابكه العصبية؛ لازالت موجودة. فإذا سقطت بعض زوائده العصبية أو تكسرت بعض مشابكه أو أصابها تلف؛ نسى المريض الأشياء المسجلة عليها فقط، لكنه لازال يتكلم ويحكي سيرة أجداه وأمجاده؛ ولازال يحتفظ بقدرته علي الكلام وما حفظ من القرآن الكريم؛ ولديه قدرة علي بناء جمل جيدة؛ وإن نسى بعض ألفاظها. ونحن متجاوزون عمّا نسي لمرضه، ومتحاورون معه.

٣- علماء النحو الوظيفي:

" يحاولون استنباط الخصائص النحوية للغة من الخصائص الأكثر عمومية للفكر ولاستراتيجيات التواصل، هذه الطائفة من العلماء تولي اهتماما كبيرا لتعقيد البنية النحوية، موضحين في كثير من الأحيان الظواهر التي لم تولها مدرسة تشومسكي

الفكرية اهتماما يذكر."[1]

يحاول علماء النحو الوظيفي الوصول إلي قواعد النحو من جانب آخر غير طريق النحو الكلي؛ هذا الطريق هو البحث عن الخصائص العامة للفكر الإنساني التي تحقق التواصل بين بني البشر، وليفسروا كثيرا من التعقيدات النحوية، التي لم تولها مدرسة تشومسكي اهتماما كبيرا. هذا الجانب الذي سلكه علماء النحو الوظيفي هو ما قام عليه الفكر الإنساني من المنطقية، فعموم الفكر الإنساني جعل لكل فعل فاعلا؛ ظهر ذلك في كل اللغات، وهو منطق الأشياء. ذلك بغرض تحقيق التفاهم والتواصل بين بني البشر كلهم؛ فإذا نطق إنسان بالفعل (قتل) سأله السامع عن الفاعل وكذلك المفعول، هذا الأمر يحدث في كل اللغات. ومن هذا نستنبط القاعدة النحوية العامة في كل اللغات أن الجملة لا بد لها من فعل وفاعل في كل لغات ولهجات العالم؛ وتلك خاصية نحوية أو قاعدة صارت نحوية، لأن النحاة هم من اكتشفها؛ لكنها موجودة في الكلام سلفا قبل أن يكتشفها النحاة. لهذا كان اهتمامهم بالتقعيد النحوي أي وضع قواعد نحوية مستخلصة من كلام الناس، فتصبح ضابطا لهذا الكلام ومرجعا لهم إذا حدث لبس في الفهم والتواصل، إنه قمة العبقرية اللغوية في اكتشاف روابط بين عناصر الجملة.

وكان اهتمامهم أيضا بالتعقيد في بناء الجملة بغرض معالجته وبيان سبب هذا التعقيد الذي حدث نتيجة أغراض تواصلية مختلفة يضعها المتكلم في عبارته، فالإنسان يتواصل مع أخيه دون غيره بما يشبه الشفرة، وذلك لتحقيق أغرض تواصلية حياتية خاصة بهما وحدهما. فإذا كان منطلق أصحاب النحو الوظيفي هو بيان سبب التعقيد النحوي بغرض تحقيق تواصل مشفر بين أبناء الجماعة اللغوية، فإنهم سيدخلون إلي تشعيبات نحوية وتعقيدات لم يهتم بها أبناء تشومسكي، لأن غرضهم إثبات (عكس ذلك) أن قواعد النحو يمكن تلخيصها بجمعها في عدد محدد من القواعد النحوية العامة التي تسمى بالنحو الكلي؛ يُولد المرء مزودا بها في جيناته الوراثية.

لهذا ترفض مدرسة النحو الوظيفي هذا المنهج لأن الغرض التواصلي للغة الذي

---

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٢٩

يحاولون إثباته من خلال بيان الوظائف النحوية أكبر من أن نضمه في مجموعة قواعد نحوية شاملة عامة يعرف بالنحو الكلي. فالأنماط المتعددة للجمل أكبر من أن نحصرها.

الخلاصة:

يلخص جاكندوف رأيه وعمله في شرح العملية اللغوية بقوله "لقد قمنا هنا بتقديم نهج تم تضمين اللغة فيه بشكل راسخ في وسط العقل البشري. إذ يستخدم البشر اللغات للتواصل حول ظروفهم في العالم كما يتصورونه"[١] يشير جاكندوف إلي أن الناس يستخدمون اللغة للتواصل مع عالمهم، وأنهم يقومون بعمليات تصور ذهني كي يفهموا العالم الذي حولهم. وهذا اعتراف منه بوجود عمليات تصورية عملها هو تحقيق التفاهم بين البشر، فلولا وجود البنية التصورية لكان من المحال أن تتم عملية التواصل الفكري بينهم، فهم ينقلون تصورهم عن الأشياء بالبنية التصورية عن طريق اللغة. ثم يشير إلي دور اللغة في نقل الأفكار وتحقيق التواصل قائلا "اللغة هي إذن نظام متخصص معرفيا يربط المفاهيم بالتمثيلات الداخلية للعبارة، والعبارات ترتبط بدورها بالتعليقات التي تتم لنقل الانطباع عن العالم من خلال نُظُم التحكم الإدراكية والحركية الأكثر تخصصا." [٢] فهو يربط أجزاء الموضوع ببعضها لينتهي إلي الجانب العصبي فيها.

ثم يعود ليؤكد إيمانه بنظرية النحو الكلي من خلال عرض لرأيه حول نشأة اللغة والنحو الكلي مع نمو الطفل. يقول "ويتم توجيه اكتساب الطفل للغة من خلال نظام غير مكتسب، أي من خلال القواعد النحوية الشاملة العالمية، والتي هي نتاج للانتقاء الطبيعي. ويتم تدعيم كل هذه الأنظمة في النظام العصبي للدماغ." [٣]

إنه يشير إلي أن عملية اكتساب الطفل للغة تتم من خلال نظام غير مكتسب أي موجود سلفا لديه هو النظام الجيني الوراثي، وهو في رأيه أن الذي يصنع النظام الجيني الوراثي هو النحو الكلي، الذي أتاه من الانتقاء الطبيعي هو مصطلح دارون (الانتخاب الطبيعي)، وأنه مدعوم بقدرة علي تدوينه في النظام العصبي للدماغ.

---

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٣٧

(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٣٧

(٣) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٣٧

المحور الثالث: آراء علماء اللغة والأعصاب حول النحو الكلي

١- رأي تيرنس دبليو ديكون:

أ- النحو الكلي الحقيقة أم الخيال؟:

لقد أُعيد النظر إلي نظرية تشومسكي عن النحو الكلي في ضوء ما قدمه علم الأعصاب من بحوث حديثة، فذكر ديكون رأيه في النحو الكلي قائلا "والنظرية القائلة بوجود قواعد فطرية لنحو اللغة إنما ارتكبت مغالطة أدت قسرا إلى تحويل العملية التطورية الاجتماعية إلى بنية شكلية استاتيكية، إنها لا تغفل فقط تأثير القوى التي بوسعها تعديل صياغة الكلمة وبناء الجمل على مدى الزمن، وكذلك تأثيرات العوامل الداعية للتلاقي أو اتجاهات التوازي، ولكنها تغفل أيضا القوى التي تحقق لبنية اللغة استقرارها، وأصبحت بذلك مسئولة عن الحفاظ عن الاستعمال المتناغم بين الأفراد المعاصرين، وتعرض كل هذا كأنه مسلمات دون تفسير إذا افترضنا أن ثمة تعليمات كلية ثابتة لاستنباط هياكل اللغة، وجدير بالإشارة أن فكرتي هنا ليست أن هذه التعليمات موجودة خارج الطفل في مجتمع اللغة، وإنما أري أن لا وجود لهذه التعليمات (إلا في خيالات أولئك الذين يسطرون كتبا عن النحو وبناء الكلمات الفطريين أو الكاملين)"[١]

ماذا في النص؟

ذكر ديكون رأيه حول قضية النحو الكلي؛ أنها أخطأت في عدة نقاط؛ منها أنها جعلت التطور الاجتماعي عملية ثابتة (استاتيكية). فلا تغير ولا تطور في المجتمع؛ فهو ثابت مستقر؛ نتيجة إيمانهم بثبات قواعد النحو الكلي وعموم هذا الثبات والاستقرار في كل لغات البشر؛ كذا ثبات القواعد الاجتماعية التي تحكم السلوك الاجتماعي كله. لهذا فإن النظرية بهذا التصور قد أغفالت عدة أمور من قواعد السلوك الاجتماعي:

١) تأثير العوامل التي تُعدِّل صياغة الكلمة وبناء الجمل على مدى الزمن، فاللغة بكل مكوناتها قابلة للتغيير نتيجة تطور المجتمع الذي توجد فيه، وتغير سلوك أفراده.

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز: التطور المشترك للغة والمخ: ص٢٢٠

٢) تأثير العوامل الداعمة للتلاقي أو اتجاهات التوازي، فقد أغفلت وجود عوامل تحقق التلاقي أو اتجاهات التوازي اللغوي بين أبناء اللغة الواحدة حول استعمالهم للغة، أي اتفاق أبناء اللغة الواحدة في استعمالهم اللغة واختلافهم فيها أيضا.

٣) القوى التي تحقق لبنية اللغة استقرارها؛ وهي قوى الاتفاق والاصطلاح التي بين أبناء اللغة الواحدة علي بنية معينة تحقق للغة ثباتا واستقرارا بينهم ليتم تواصلهم معا، وهو ما يحقق تناغم بين أفراد المجتمع الواحد المعاصرين والمستخدمين لهذه اللغة، وعلي الرغم من هذا فإن اللغة في تطور وتغير دائم لتغير السلوك الاجتماعي لأفراد المجتمع.

نفهم من قول ديكون أن نظرية النحو الكلي أغفلت كل هذه الأمور وعرضتها دون تفسير لها كأنها مسلمات؛ ويمكن قبول هذا لو افترضنا وجود قواعد كلية ثابتة لاستنباط واستخراج هياكل اللغة عبر الأجيال؛ نظرا لوجود جين وراثي خاص بنقل هذه القواعد النحوية؛ يقوم هذا الجين بنقلها بينهم. لكن هل ديكون مؤمن بهذا الرأي؟

إن هذا يعني عدم إيمانه بهذه النظرية؛ واعتبارها مجرد افتراض، فلا يوجد ما يؤكد وجود قواعد كلية ثابتة في مخ الطفل عند ميلاده. فهذه القواعد والتعليمات لا وجود لها أصلا في مخه، وهي ليست موجودة في خارج الطفل في مجتمعه أيضا. فليست موجودة بالجملة مطلقا لا في مخ الطفل ولا في مجتمعه، إنما هي افتراض وخيال من أصحاب تشومسكي؛ إنها خيال وليست حقيقة.

ب– حجج ديكون للرد علي النحو الكلي:

يقدم ديكون حججه في رفض النحو الكلي ويفندها في عدة نقاط هي:

أولا: ليست قواعد النحو عامة في كل اللغات

ويؤكد ديكون رأيه في ذلك بقوله "يفرض علماء النحو مشكلات مناقضة من مثل:

١– عدم قابلية النظرية لتعلم النحو وقدرات الاكتساب الإعجازية عند الأطفال.

٢– القول بشمولية القواعد المجردة غير المنطقية في الغالب للنحو وبناء الجمل."[1]

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٢١

إن علماء النحو الكلي يفرضون مشكلات متناقضة نتيجة لرأيهم هذا؛ أهمها أن:

أ) النحو لا يمكن تعلمه لأن الفرد يولد مزودا به؛ فكيف يتعلمه ويطوره مع وجوده سلفا.

ب) قضية اكتسابه نحو لغته مرفوضة، لأنه مولد مزودا بها فلا حاجة لاكتسابها؛ مما ينفي عن الطفل والإنسان البالغ القدرة الإبداعية في جانب اللغة علي الرغم من كونهما مبدعين فيها مما أدي إلى تعددها للغات فهي معجزة اللغة.

ج) هذا القول بشمولية النحو الكلي كقواعد مجردة شاملة لكل اللغات؛ غير منطقي في أغلبه، لأن قواعد النحو التي تبنى الجمل ليست واحدة في كل اللغات مما يخالف الواقع؛ فكثير من القواعد النحوية قاصرة علي لغة واحدة، ولا تشمل كل اللغات. فكل لغة (وإن تشابهت مع غيرها) لها منطقها الخاص الذي يصنع نحوها الخاص.

ثانيا: القدرة علي التعميم

يذكر ديكون رأي إضافيا؛ أن هذا التعميم والشمول في القواعد النحوية يرجع إلى قدرة كامنة في أمخاخ البشر؛ التي سماها علماء النفس "القدرة على التعميم " فهي داخل أمخاخ البشر؛ وذلك لإحداث تكيف بين اللغة والمخ لفهم اللغة بصورة مجمعة في شكل قواعد شاملة، لذا يمكن فهم النحو الكلي أنه ناتج عن القدرة على التعميم؛ يحدثها المخ للتكيف؛ فهي "نتاج اتجاهات تورية[1] اجتماعية متلاقية، وباعتبارها عمليات تكيف لبنية اللغة تجري تلقائية وموازية بسبب القيود والوجود الكلي الشامل والانجازات، وهي جميعا أمور حتمية وتهيئها أمخاخ البشر، خاصة أمخاخ الأطفال، لقد تكيفت اللغات مع أمخاخ البشر، كما وأن أمخاخ البشر تكيفت مع اللغات"[2]

التوافق بين لغات البشر أتي نتيجة عمليات تورية اجتماعية أي تلميحات وإشارات مستترة مخفية لدى كل البشر بكل مجتمعاتهم؛ أدت إلي حدوث تكيف وتوافق في بنية لغات البشر. إن ما نجده من توافق في قواعد شاملة للنحو ناتج عن

---

(١) اتجاهات تورية اجتماعية: اتجاهات اجتماعية مستترة مخفية أوجدتها

(٢) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٢١

القدرة علي التعميم التي لدى البشر في أمخاخهم والتي تجعلهم يقومون بالتكيف بين اللغات والأمخاخ؛ بخلق أشياء في اللغة تجعلهم يفهمونها ويجعلونها وسيلة تواصل؛ فجعلوا لغتهم جملا خاضعة لقواعد محددة ضابطة لها، تتكيف أمخاخهم معها في فهمها وتوظيفها في التواصل بها بصورة بسيطة، فتكيفت كل اللغات مع أمخاخ أصحابها، وتكيفت الأمخاخ مع لغاتها، فأصبحت بينهم شفرة لغوية تحقق لهم التواصل معا لا يعرفها سواهم، وهذا أمر حتمي؛ تحتمه طبيعة خلقة أمخاخهم، التي جاءت إلى العالم مهيأة لهذا التكيف لتحقيق التواصل.

ثالثا: اللغات تتغير بصورة أسرع من التغير البيولوجي للأمخاخ

اللغات تتغير بسرعة أكبر لأن تفاعلها علي ألسنة البشر دائم ومستمر يومي ولحظي، مما يجعل اللغة قابلة للتغيير السريع، وذلك في مقابل التغيرات التي تحدث في بنية المخ؛ فهى أبطأ، لهذا "تظل البنية المعمارية الأساسية لجميع اللغات محفوظة لدرجة كبيرة علي مدى أبعاد طويلة في المكان وفي الزمان، وتظل **قابليتها للتعلم قائمة** علي الرغم من التعديلات والتشوهات؛ ذلك لأن المتغيرات الأقل قابلية لأن يتعلمها أفراد النوع ـــ أي لم تتكيف علي نحو جيد وفقا للعقل البشري ـــ يجرى الانتخاب دائما ضدها."[1]

اللغات تتغير أسرع لأن القدرة علي التعلم؛ وقابلية الأمخاخ للتعلم تظل دائمة ومستمرة في الأمخاخ، وتظل الأمخاخ محافظة علي ما لديها من قدرة علي التعلم، فيكون تغير اللغات أسرع. وفي مقابل عملية التعلم توجد متغيرات أقل قابلية للتعلم يتم انتخاب ضدها باستمرار. لأنها ليس قابلة للتعلم داخل أمخاخ البشر؛ فيقوم المخ (لتحقيق التكيف بين اللغة والمخ) بانتخاب ضدها؛ أي إيجاد بدائل لما لا يستطيع تعلمه.

رابعا: القدرة علي التخمين

كيف يصنع الطفل قواعده النحوية؟ إنه مبدع:

هذا سؤال جوهري في عملية اكتساب الطفل للغة؛ إن الطفل يولد ولديه قدرة علي التخمين التي تمكنه من عملية التعميم التي ذكرناها آنفا؛ وهي تَنْتج عن عملية

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٢١

ملاحظة القواعد المتكررة في لغته؛ فيصنع من خلال عمليتي القياس والتعميم قواعد عامة لنحو لغته؛ يقيس عليها كل ما يسمع ويبني في مخه القواعد النحوية مما يكتسبه بالسماع. يقول" يبدو أن أطفال البشر لديهم استعداد سابق لتخمين قواعد بناء الجمل بطريقة صحيحة، وسبب ذلك تحديدا أن اللغة تتطور بحيث تجسد في قواعد بنائها الأنماط التي يتكرر تخمينها كثيرا، لقد تطور المخ علي نحو مشترك بالنسبة للغة، ولكن اللغات أسهمت بالنصيب الأوفى في عملية التكيف"[1].

الرد علي هذا الرأي:

إن ما ضللنا في قضية النحو الكلي ما نراه لدى الأطفال من استعداد فطري لتخمين قواعد اللغة بطريقة صحيحة، وهي قدرة تدخل ضمن قدرات المخ البشري، وهي القدرة علي التخمين والاستنتاج. إن قدرة المخ علي تطوير اللغة آت من قدرته علي الاستنتاج والتخمين؛ فهو ينمي لغته ويطورها؛ فتصبح لغته في ديناميكية دائمة نتيجة إضافة الاستنتاجات وتخمينات جديدة إليها، وهو ينافي القول بشمول النحو الكلي وثباته، لأنه يتطور بتطور قدرات المخ علي التخمين والاستنتاج. فتطورت قدرة المخ علي التخمين وتطورت معها اللغة.

ويأتي التخمين والاستنتاج من ملاحظة تكرار أنماط وقواعد وجمل وأبنية في اللغة، يستخلص الفرد ويستنتج منها قواعده الجديدة، وهذا الأمر نجده يحدث بكثرة لدى الأطفال لأنهم أجرأ الناس في الخروج علي قواعد اللغة؛ يصوب البالغون بعضها، ويُعد الباقي تطورا لها؛ وقد يَجمد فيصبح صورا جديدة لتطور اللغة.

ويؤكد ما سبق أن الأمر مرتبط بالمراحل العمرية المختلفة التي يمر بها الطفل. ففي بداية اكتسابه للغة يكرر كل ما يسمعه، ككتل صوتية دون إدراك تام لمعناها ولا تركيبها النحوي؛ فهو يكرر من الكلام المقاطع التي تتناسب مع قدرته في المرحلة العمرية التي يعيشها الآن، حتى يصل إلي مرحلة من النمو تمكنه من أن ينطق الجملة كاملة؛ فيلاحظ أن فيها أبنية وتراكيب متكررة؛ فيصنع لها قواعد ضابطة تمثل لغته الخاصة والجديدة.

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٢٢

٢- رأي دومينيك مزوني ونظرية المحددات القياسية:

يفترض دومينيك "أن البشر يولدون قادرين ـــ علي حد سواء ـــ علي تعلم أي لغة كانت، وإن كان ذلك، فلا بد ـــ بالتبعية ـــ من وجود خصائص تشترك فيها اللغات جميعا، تجعل تعلمها سهلا، ومن هنا كان الاتجاه نحو البحث في الذهن (النموذج الداخلي)؛ فلغات البشر ديناميكية وقادرة علي التعبير عن عدد لا نهائي من الأفكار، ولا تفسير لذلك سوى احتمالين:

- الكفاءة الذهنية Aptitude

- والاستعداد المسبق Predisposition."[١]

هذا القول يفترض أن البشر يولدون ولديهم قدرة علي تعلم أي لغة وهذا صحيح. مما يستتبع وجود قاسم مشترك بين اللغات، وهذا غير صحيح؛ لماذا؟ لأنه يستخلص نتائج بناء علي مقدمات لا علاقة لها بها؛ فلا يشترط أن تكون هناك خصائص مشتركة بين اللغات لأن المخ البشري لديه القدرة علي التعلم. فالتعلم قدرة فطرية علي اكتساب كل الخبرات والمهارات ومنها اللغة، أما الخصائص المشتركة بين اللغات فترجع إلي تشابه منطق اللغات البشرية في تناول الأشياء والأحداث؛ لهذا كان بناء الجمل متشابها في أغلب اللغات، مما يسهل تعلمها لتشابه منطق اللغات في ذلك ومنطق وسلوك حياتها. ثم اتجه ناحية تفسير تعدد لغات البشر؛ إنها (ديناميكية قادرة علي التعبير عن عدد لا نهائي من الأفكار؛ وذلك بسبب الكفاءة الذهنية، والاستعداد المسبق). هذا الأمر يرجع في مجمله إلي خاصية خاصة في اللغات البشرية؛ هي قدرتها علي التعدد من خلال الاختلاف بينها؛ مما يؤدي إلي ظهور لغات كثيرة، تبدأ بتحول اللغة الواحدة إلي عدة لهجات؛ هذا الاختلاف صفة أساسية في لغة بشر مما أوجد فيها صفة التعدد. وهي ما أشار الحق سبحانه وتعالى إليها بقوله: (اختلاف ألسنتكم)، وهي تنطلق من أمرين: الأول: الكفاءة التي بالمخ البشري، وهي قدرة غير عادية علي التعدد والتوليد الدائمين في عناصر اللغة المختلفة، وفي غيرها من شئون حياته، فهو مبدع ومطور بطبيعته المخية.

---

(١) قيود النحو الكلي : كيف يكتسب البشر القدرة علي الكلام، تر/ فرحات المليح، مجلة الحياة الثقافية، العدد ١٣٩، سنة ٢٠٠٢م الكويت، ص٣٦

والثاني: الإعداد المسبق للمخ؛ فهو إشارة تؤكد جاهزية المخ للقيام بهذا العمل، أي الإعداد مسبق. كل هذا صحيح لكن ما علاقة هذا بالنحو الكلي؟

نظرية المبادئ والأحياز:

"هذا ما دفع تشومسكي إلي القول بأن النحو الكلي UG موجود في أذهان الأطفال منذ الولادة، وأنه أساس كل اللغات التي يتعلمها البشر، ويتمثل بكونه مجموعة من المبادئ والأحياز[١] (المحددات القياسية) Principles and Parametes. واستجابة لما يوجد في المحيط يبتكر الطفل نحوا مشتركا يسمُ كل هذه الأحياز بقيم Values منتجا إحدى لغات البشر الممكنة التي يبدأ بها، بحيث إن ذهن الطفل ينفتح أول مرة إلي أي لغة بشرية، منتهيا إلي اكتساب لغة معينة."[٢]

هذا القول يشير إلي رأي تشومسكي أن النحو الكلي موجود في أذهان الأطفال منذ ولادتهم. وأن النحو الكلي هو أساس كل اللغات التي يتعلمها البشر. وأنه عبارة عن مجموعة من المبادئ والأحياز أي المحددات القياسية (قواعد نحوية). يقوم الطفل بصنع لغته وتطويرها لإنتاج نحو مشترك، ثم اكتسابها من خلال هذه المجموعة من المبادئ والأحياز (المحددات القياسية) التي يملأها بقواعد لغة مجتمعه. فيكتسب لغته من الآتي:

١- استعداد فطري لاكتسابها؛ بوجود النحو الكلي مسبقا في مخ الطفل قبل ميلاده.

٢- قدرة علي تعلم اللغة التي يصنعها النحو الكلي بمخ الطفل نظرا لوجوده سبقا فيه.

٣- مجتمع لغوي محيط بالطفل فلا يمكنه أن يكتسب اللغة إلا إذا وجد في مجتمع.

٤- قدرة علي الابتكار والإبداع الموجودة فطريا في مخ الطفل، فينتج لغته بصنع الآتي:

أ- يملأ الأحياز (محددات قياسية، وهي قواعد نحوية كلية)؛ بالقيم (أي جمل صحيحة).

---

(١) المبادئ والأحياز : قواعد المحددة أي قواعد نحوية تشمل كل اللغات البشر.

(٢) قيود النحو الكلي: ص٣٧

ب- يبتكر لغة جديدة، هي نتاج مِلْء الأحياز باللغة التي سمعها وإبداعه نحوا مشتركا فيها.

إذن الطفل يكتسب لغته بتأثير مجتمعه اللغوي المحيط به؛ ووجود النحو الكلي مسبقا، أوجد فيه أحياز (قواعد نحوية) يملأها بابتكاره نحو جديد. لينتج نحوا مشتركا للغته؛ لينتهي به الأمر إلي اكتساب لغة بيئته المحيطة به بملء الأحياز بجمل تتبع لغته.

الرد علي هذا القول:

إن اللغات نشأت بطريقة واحدة. نتيجة وجود قدرة فطرية واحدة لدي كل البشر، هي القدرة علي التعلم والترميز؛ مما دفع بتشومسكي إلي القول بالنحو الكلي، فكل البشر لديهم القدرة علي تعلم أي لغة يسمعونها. وتبدأ هذه القدرة عملها قبيل ميلاد الطفل، مما يهيئه لاكتساب اللغة. وهذه المبادئ والأحياز التي أشار إليه ليست كما ذكر قواعد يملأها الطفل بالجمل والعبارات، بل هي مكونات فطرية موجودة لدى الطفل كقدرة ثابتة داخل بناء مخه؛ تعد آلة اكتساب اللغة (جهاز اكتساب اللغة كما سماه تشومسكي) تتمثل في مجموعة قدرات في المخ: كقدرة التعلم التعميم الاستنتاج الإبداع .

الطفل يبدع نحوا مشتركا:

في ضوء هذه القدرات التي تعد آلة داخل مخ الطفل؛ يستطيع الطفل أن يبتكر نحوا مشتركا نتيجة القدرة الإبداعية التي لديه، فيأتي هذا النحو مكونا من نحو اللغة المحيطة به، وإبداعه فيها من خلال آلته وهي القدرات السابقة؛ فيتمكن من إنتاج إحدى اللغات التي يبدأ بها كلامه بعد اكتساب هذه المبادئ وملء أحياز مخه بالجمل والعبارات؛ استجابة لما يوجد في مجتمعه من قواعد لغة وعلي نمطها. يكتسبها ويقلدها ثم يطور فيها ليبدع منها لغة هى نتاج عملية تطوير وإبداع في لغته الأم.

وهو ينتج نحوا مشتركا جديدا بينه وبين أبناء مجتمعه المحيطين به، وفي عصره الذي يعيش فيه، وفي ذلك إشارة إلي أن لغة الأبناء تختلف عن لغة الآباء نتيجة إبداع الأبناء فيها؛ فيصنعون نحوا مشتركا جديدا ولغة جديدة خاصة بهم ومفهومة لديهم هم فقط.

إن مخ الطفل يأتي مهيأ عند ميلاده لاكتساب أي لغة يوجد في محيطها بما لديه من قدرات فطرية هيأته لاكتساب أي لغة. لهذا فإن ما سماه تشومسكي نحوا كليا هو مجموعة قدرات موجودة في مخه منذ قبيل ميلاده، مكنته من اكتساب اللغة المحيط به.

٣- تشومسكي وأحيائية النحو الكلي:

يرى تشومسكي أن نظريته حول النحو الكلي هي نظرية أحيائية؛ فيُرجع النحو الكلي إلي الإعداد الأحيائي للقدرة اللغوية التي هي معجزة يمتلكها البشر ضمن بنائهم الأحيائي، لذا فهو يري النحو الكلي موجودا لدى كل البشر ضمن التعميمات الوصفية التي تأتي منها الصفات المشتركة العامة في كل اللغات، يقول "كثيرا ما نقرأ فيما ينشر من أبحاث مزاعم مفادها أن القول بوجود النحو الكلي قد فُنِّد، أو أنه غير موجود أصلا. لكن لا بد أن يكون هذا فهما خاطئا. إذ يعني إنكار وجود النحو الكلي ــ أي الإعداد الأحيائي الذي تقوم عليه القدرة اللغوية ــ أن من قبيل المعجزة أن يمتلك البشر اللغة في حين لا تمتلكها المخلوقات العضوية الأخرى. والإحالة في هذه المزاعم ،كما يبدو - ليست إلي النحو الكلي؛ بل إلي التعميمات الوصفية - ومنها اقتراحات جوزيف جرينبرج المهمة جدا عن المشتركات الكلية بين اللغات"[(١)].

لهذا فهو يري أن إنكار النحو الكلي هو إنكار للإعداد الأحيائي للبشر الذي هو أساس قدرتهم اللغوية؛ فإنكاره يعد إنكارا لأهم خصائص البنية الأحيائية التي صُنع منها البشر، فهو يخلط بين القدرة اللغوية التي تدخل ضمن الإعداد الأحيائي، وبين نظرية النحو الكلي، فالأمر عنده يعود لصفات أحيائية مشتركة بين البشر؛ التي تصنع المشتركات الكلية بين اللغات.

الرد علي هذا القول:

هذا القول ليس صحيحا؛ نعم هناك عناصر مشتركة كلية بين اللغات؛ كبناء الجمل من فعل وفاعل ومفعول؛ ترجع لأسباب ذكرتها في موضعا من الدراسة. وهناك أيضا قدرة أحيائية في بناء الدماغ هي ما أشرت إليها بالقدرات التي تصنع القدرة اللغوية، كتكوين أحيائي في كل بني البشر، توجد فيهم كلهم.

لكن هذا القول السابق لتشومسكي يجب ألا يخدعنا، فنسير خلفه وننتهي إلي الاعتراف بقوله بنظرية النحو الكلي؛ فهذا أمر وذاك أمر آخر. فالنحو الكلي اتفاق في بناء الجمل والتراكيب اللغوية المختلفة؛ يخضع للجانب التصوري العرفاني، ولا علاقة له بالجانب العصبي الأحيائي للدماغ.

---

(١) أي نوع من المخلوقات نحن؟:٧١